دراسات، علوم الشريعة والقانون، المجلّد 37، العدد 1، 2010

الفاصلة القرآنية والسجع

*المثنى عبد الفتاح محمود**

ملخص

تناول البحث موضوع الفاصلة القرآنية من حيثية واحدة وهي منافاتها للسجع، فناقش مدلولها لغةً واصطلاحاً، وما يدل عليه المعنى اللغوي من دلالات نبني عليها المعنى الاصطلاحي، ووجه الربط بين هذين المعنيين، ومن ثم ناقش البحث بعض تلك التعريفات التي قيلت في الفاصلة القرآنية، ووجه منافاتها لحقيقة الفاصلة ومضمونها، وكذلك أركان الفاصلة وما يحيط بها من ملابسات، وبيان الفرق بين الفاصلة والسجع، ومناقشة القائلين بذلك، وقد تطرق البحث لأكثر آية يستدل بها مثبتو السجع في القرآن، وهي آية سورة "طه"، وذلك في تقديم هارون على موسى، حيث يقول المولى سبحانه وتعالى: {قالوا آمنا برب هارون وموسى} (طه:70)، مع أنه قدم ذكر موسى على هارون – عليهما السلام – في آية الأعراف فقال تعالى: {قالوا آمنا برب العالمين. رب موسى وهارون} (الأعراف:121- 122).

ثم في ذكر أنواع الفواصل عند العلماء، وقد جاء البحث موجزاً ومقتصراً على أمر واحد وهو أن الفاصلة منفكة عن حقيقة السجع انفكاك الليل عن النهار.

الكلمات الدالة: التفسير، الفاصلة، السجع، رؤوس الآي.

المقدمة

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله محمد صلى الله عليه وآله وسلم، أما بعد.

فقد تحدى القرآن العرب بفصيح ألفاظه، وبليغ جمله، تحداهم بأن ينظموا حقائق معارفهم، بأسلوب كلامهم، وبرونق مخاطباتهم، بمثل ما نظم القرآن حقائق الحياة، بسلك الألفاظ.

كان التحدي بالقرآن كله، بالسور والآيات، بل تحداهم بالأحرف والحركات، بل تجاوز التحدي إلى تلك الترنيمات التي أخذت بألباب أسماعهم، حتى تركتهم حيارى سكارى، لا يدرون صوب أي طريق يسيرون، ولم يقف التحدي عند هذا فحسب، بل تجاوز إلى أمر هو من الألمعية بمكان، حيث أوقفهم على حقائق أنفسهم من خلال تلك الفواصل التي فصلت الحق عن الباطل، كيف لا؟ وقد فصل على علم الله، {ولقد جئناهم بكتاب فصلناه على علم هدى ورحمة لقوم يؤمنون} (الأعراف: 52).

ومن هذه المعاني السامية نبعت حقيقة بيانية، كانت بكراً في اللسان العربي، وكانت ناقضة لما اعتاد عليه العرب من مخاطبات ومحاورات، نعم، فن من فنون البلاغة، لكنها بلاغة القرآن لا أي بلاغة، وبراعة القرآن لا أي براعة، نعم كانت الفاصلة، التي فصلت الكلام على أبدع أسلوب، وأرق مشهد، حتى طوت المعاني، ولم تبدها إلا لمن أتعب نفسه في البحث عنها، طوت الحقائق والدقائق والرقائق، لتفيض على أهل الله، ببركة دعاء الله.

وفي هذا البحث عرضت لتعريف الفاصلة من حيث اللغة، والاصطلاح، وحاولت قدر الإمكان الوصول إلى أدق تعريف، بانياً ذلك كله على كلام أئمتنا وعلمائنا، ثم تحدثت عن أركان الفاصلة وفرقت بينها وبين السجع، وناقشت من يظن أن في القرآن سجعاً، من كلام أئمتنا وعلمائنا عليهم الرحمة والرضوان.

وقد اعتمدت في ذلك كله، على أصل نادى به العارفون بكتاب الله، وهو أن كل حرف أتى في القرآن إنما أتى لمعنى، ولو أدير على لسان العرب ما وجد ما يسد مسده، ومن الله سبحانه وتعالى نستلهم المغفرة والرضوان، إنه نعم المولى ونعم المجيب.

منهج البحث:

المنهجية التي قام عليها البحث وصفية تحليلية دلالية، فهي من جهة وصفية لأقوال وآراء العلماء والبيانيين واللغويين، ومن جهة ثانية تحليلية لتلك الأقوال في مناقشتها

---

* كلية التربية للبنات، جامعة جازان، المملكة العربية السعودية.
تاريخ استلام البحث 2007/5/9، وتاريخ قبوله 2009/3/26.

© 2010 عمادة البحث العلمي/ الجامعة الأردنية. جميع الحقوق محفوظة.

وبيان وجه ضعفها وقوتها، ومن ثم فهي دلالية من حيث قوة الاستدلال ومن حيث إقامة الأدلة على المستدل عليه.

المبحث الأول

تعريف الفاصلة:

ارتبطت المصطلحات الشرعية بالمعاني اللغوية ارتباطاً وثيقاً، فكانت اللغة هي الأساس الذي بُنيت عليه هذه الاصطلاحات؛ ولذا كان حرياً بالدارس لكتاب الله، أن يصوب نظره تجاه تلك اللغة العزيزة، وعليه فلا بد من تقرير معنى الفاصلة لغةً، ثم لننظر هل حصل لها تطور دلالي؟ أو أنه مصطلح تعارف عليه العلماء فيما بعد؟

الفاصلة لغة:

يقول ابنُ فارس في عبارة مقتضبة، كانت امتداداً لعبارة "العين": "فصل: الفاء والصاد واللام كلمة صحيحة تدل على تمييز الشيء من الشيء وإبانته عنه، يقال: فصلت الشيء فصلاً، والفيصل: الحاكم، والفصيل: ولد الناقة إذا افتُصل عن أمه؛ والمفصل: اللسان؛ لأن به تفصل الأمور وتميز.

والمفاصل: مفاصل العظام، والمفْصل: ما بين الجبلين، والجمع مفاصل.

والفصيل: حائط دون سور المدينة، وفي بعض الحديث: "من أنفق نفقةً فاصلةً فله من الأجر كذا" وتفسيره في الحديث أنها التي فصلت بين إيمانه وكفره"(1).

ويقول الزمخشري في "الأساس": "تقول: كانوا حكاماً فياصل، يحزون في الحكم المفاصل؛ جمع فيصل، وهو الفاصل بين الحق والباطل، وهذا الأمر فيصل، أي: مقطع للخصومات"(2).

وجاء في "اللسان": "والفاصلة: الخرزة التي تفصل بين الخرزتين في النظام، وقد فصل النظم، وعقد مفصل، أي: جعل بين كل لؤلؤتين خرزة"(3).

مما تقدم يتبين لنا عدة أمور، هي:

1- أن الفصل يدل على تمييز شيء عن شيء.
2- الفصل فيه إبانة، وعلى هذا فهو عكس الفصم الذي لا إبانة فيه.
3- الفصل يكون في الماديات والمعنويات.
4- الأصل المادي هو أساس لما حصل من تطور دلالي، وذلك مثل الفصيل ولد الناقة، والمفاصل للإنسان، ثم انبثق عن هذه الأصول المادية، معانٍ معنوية؛ كالفيصل وهو الفصل بين الحق والباطل في الخصومات.
5- لا يعني التمييز والإبانة بين شيئين أنهما أجنبيان بعضهما عن بعض، بل قد يكون بينهما تمام الاتصال والترابط، كالخرزة التي تفصل بين الخرزتين في السلك والنظام.

وهذا الأمر الأخير سيكون له شأن في بحثنا هذا بتوفيق الله. فهذه الأمور نستطيع أن نستخلصها من خلال فهمنا للغة العرب، وعلى هذه اللغة نبني جميع اصطلاحاتنا؛ لتكون الأصالة على أتم وجه وأبينه.

الفاصلة اصطلاحاً:

ومن الأصل اللغوي نبع تعريف الفاصلة عند علمائنا – رحمهم الله -، فقد نظروا للفاصلة القرآنية باعتبارها متصلة بالمعنى اللغوي، يقول الزجاج (ت310هـ): "وأواخر الآيات في كتاب الله فواصل، بمنزلة قوافي الشعر - جل كتاب الله عز وجل- واحدتها فاصلة"(4).

وقال الرماني (ت388هـ): "الفواصل حروف متشاكلة في المقاطع توجب حسن إفهام المعاني، والفواصل بلاغة، والأسجاع عيب، وذلك أن الفواصل تابعة للمعاني، وأما الأسجاع فالمعاني تابعة لها، وهو قلب ما توجبه الحكمة في الدلالة، إذ كان الغرض الذي هو حكمة إنما هو الإبانة عن المعاني التي الحاجة إليها ماسة، فإذا كانت المشاكلة موصلة إليه فهو بلاغة، وإذا كانت المشاكلة على خلاف ذلك فهو عيب ولُكنة؛ لأنه تكلف من غير الوجه الذي توجبه الحكمة"(5).

وقال الباقلاني (ت403هـ) متابعاً لمعاصره أبي الحسن الرماني في تعريف الفاصلة: "وأما الفواصل فهي حروف متشاكلة في المقاطع، يقع بها إفهام المعاني وفيها بلاغة، والأسجاع عيب، لأن السجع يتبعه المعنى، والفواصل تابعة للمعاني"(6).

وقال الداني (ت444هـ): "كلمة آخر الجملة"(7).

وقال الراغب (502هـ): "والفواصل أواخر الآي"(8).

وقال الزركشي (ت794هـ): "هي كلمة آخر الآية، كقافية الشعر وقرينة السجع"(9).

وقال الفيروزآبادي (ت817هـ): "وأواخر آيات التنزيل فواصل بمنزلة قوافي الشعر، الواحدة فاصلة"(10).

وقال أبو البقاء الكفوي (ت1094هـ): "والفواصل تتبع المعاني، ولا تكون مقصودة في نفسها"(11).

وقال سيبويه (ت180هـ): "وجميع ما لا يحذف في الكلام، وما يختار فيه أن لا يحذف، يحذف في الفواصل والقوافي، فالفواصل؛ قول الله عز وجل: {والليل إذا يسر} (الفجر: 4)، و{ما كنا نبغ} (الكهف: 64)، و{يوم التناد} (غافر: 32)، و{الكبير المتعال} (الرعد: 9).

والأسماء أجدر أن تحذف؛ إذ كان الحذف فيها في غير

الفواصل والقوافي ... وإثبات الياءات والواوات أقيس الكلامين، وهذا جائز عربي كثير"(12).

وقد أخرت نص سيبويه لأن له شأناً عند الناس، ولأنني أرى أنه بحاجة إلى مناقشة نعيد من خلالها وجهة النظر نحو هذا النص.

فقول الرماني في تعريفه للفاصلة القرآنية هو الأليق بالقبول والتبني، وهذا ما صنعه الباقلاني حين تبنى نص الرماني، واعتمده في كتابه، على أن بقية التعريفات تحتاج إلى مناقشة، فقول الداني كلمة آخر الجملة، لا علاقة له بالفاصلة القرآنية بقدر ما له علاقة بالفاصلة النثرية ـ إن صح التعبير ـ، وتعريف الزجاج والراغب والفيروزآبادي والزركشي، انصب على رؤوس الآي، فرأس الآية عندهم والفاصلة مترادفان، والأمر ليس كذلك كما سيأتي.

على أن عبارة الزجاج فيها تنزيه للنص القرآني حين قال: "جل كتاب الله عز وجل"، أي: عن مشابهة القوافي الشعرية، وبالتالي يكون امتاز عن التعريفات الأخرى بالاحتراز الشرعي.

وتعريف أبي البقاء الكفوي غير مسلم، فالفاصلة القرآنية تنشئ معنى جديداً يكون متضافراً مع المعاني الأخرى، وهي مقصودة في نفسها لا كما قال، وإلا فيخلو القرآن من الدرجة العالية من البلاغة، ولا أدري كيف يخرج من عالم أن الفاصلة القرآنية ليست مقصودة في نفسها، وأنها تابعة لغيرها، وهل من حرف في كتاب الله إلا وهو مقصود لذاته؟ متميز في مكانه؟ فهذه التعريفات تخلو من الدقة، على جلالة قائليها.

وأما تعريف سيبويه فيحتاج إلى وقفة، فهو يقول: "إن ما لا يحذف في الكلام، وما يختار فيه أن لا يحذف، يحذف في الفواصل والقوافي"، ويقول: "وإثبات الياءات والواوات أقيس الكلامين، وهذا جائز عربي كثير"، فالذي يقرره سيبويه أن الكلام الفصيح الذي لا يحذف، ويختار فيه عدم الحذف ـ أي حذف الياءات والواوات من آخره ـ قد يتجوز فيه ويحذف في أمرين؛ الأول: الفواصل، والثاني: القوافي، والحذف في الفواصل والقوافي هو ليس بأقيس الكلامين، وذلك على اعتبار أن إثبات الياءات والواوات هو الذي يقاس عليه، وذلك أن إثباتهما هو الأكثر استعمالاً في لغة العرب، وأما حذفهما فهو في دائرة المستعمل.

وهناك فرق بين الفاصلة القرآنية ورأس الآية، يقول الزركشي: "وفرق الإمام أبو عمرو الداني بين الفواصل ورؤوس الآي، قال: أما الفاصلة فهي الكلام المنفصل فما بعده، والكلام المنفصل قد يكون رأس آية وغير رأس، وكذلك الفواصل يكن رؤوس آيٍ وغيرها، وكل رأس آية فاصلة، وليس كل فاصلة رأس آية، فالفاصلة تعم النوعين، وتجمع الضربين"(13).

والذي ينبغي أن يتوافر في تعريف الفاصلة القرآنية أمور، وهي ما يأتي:

1- أن ترتبط الفاصلة بالوقف التام مفهوماً ومعنى، فكثير من الآيات يصح أثناء قراءتها الوقف التام، فمتى صح هذا الوقف، وجدت الفاصلة، وهكذا يتجلى الفرق بين رأس الآي والفواصل، ويعرف علماء القراءات والتجويد الوقف التام بقولهم: "هو الوقف على كل كلمة ليس لها تعلق بما بعدها ألبتة، أي لا من جهة اللفظ ولا من جهة المعنى، كقوله: {وأولئك هم المفلحون} فيوقف عليه ويبتدأ بما بعده"(14).

2- أن ترتبط الفاصلة بالمعنى، فهي أساس في إنشاء المعاني، ولا تكون المعاني تابعة لها، وهي بذلك تخالف الأسجاع، فالفاصلة تابعة للمعنى في تتميمه وتكميله، فالمعنى لا يتم إلا بها، وهكذا تبرز قيمتها، بينما الأسجاع فليست كذلك، فالمعاني تابعة لها.

3- أن ترتبط الفاصلة بجرس صوتي يبعث في النفس روح الانقياد والطاعة للمعنى المتضمن في اللفظ القرآني، وهذه الخاصية لا تتوافر في كتاب كما تتوافر في القرآن، وهي خاصية فاق كتاب الله كتب البشر، وأتى بطريقة أخذت من الناس مسامعهم، تاركةً إيحاءات ما كانوا ليلمسوها لولا هذه الطريقة البديعة.

فهذه الأمور الثلاثة لا بد من توافرها في تعريف الفاصلة القرآنية، وإذا أردنا أن نفهم تعريف الرماني ضمن هذه الأمور فيكون الإبداع من الرماني، وحسن الفهم والتدبر لمن جاء بعده.

هذا ما أستطيع تقريره بالنسبة لتعريف الفاصلة، لغة واصطلاحاً، على أنه لا بد من التوسع في توضيح هذا المصطلح، وذلك لضبابية الرؤية تجاهه لدى كثير من الأدباء واللغويين والناقدين، ولا بد أن ينبع التعريف من عالم بكتاب الله علك اللغة، وفهم مراد الله من كلامه، دون إغفال لمقصد القرآن الهدائي.

المبحث الثاني

أركان الفاصلة:

للفاصلة أركان لا بد أن تتوافر فيها، وذلك حسب ما قرره العلماء في مفهوم الفاصلة، وهذه الأركان هي بمثابة محاور أساسية وسأذكرها جملة ثم أفصل فيها واحدة تلو الأخرى.

الركن الأول: طريقة معرفة الفاصلة.

الركن الثاني: مبنى الفواصل على الوقف.

الركن الثالث: ارتباط الفواصل بالنظم.

الركن الرابع: تجانس وتقارب حروف الفواصل.

الركن الخامس: فوائد الفاصلة.

أولاً: طريقة معرفة الفاصلة:

جاء في "البرهان" عن الجعبري أن لمعرفة الفاصلة طريقين:

"**الأول**: التوقيفي، روى أبو داود عن أم سلمة: لما سئلت عن قراءة رسول الله قالت: "كان يقطع قراءته آيةً آية"، وقرأت: بسم الله الرحمن الرحيم إلى الدين تقف على كل آية(15). فمعنى: "يقطع قراءته آيةً آية"؛ أي: يقف على كل آية، وإنما كانت قراءته كذلك ليعلم رؤوس الآي.

قال: ووهم فيه من سماه وقف السنة؛ لأن فعله عليه السلام إن كان تعبداً فهو مشروع لنا، وإن كان لغيره فلا، فما وقف - عليه السلام - عليه دائماً تحققنا أنه فاصلة، وما وصله دائماً تحققنا أنه ليس بفاصلة، وما وقف عليه مرة ووصله أخرى احتمل الوقف أن يكون لتعريفهما، أو لتعريف الوقف التام، أو للاستراحة، والوصل أن يكون غير فاصلة، أو فاصلة وصلها لتقدم تعريفها.

الثاني: القياسي، وهو ما ألحق من المحتمل غير المنصوص بالمنصوص – لمناسب - ولا محذور في ذلك؛ لأنه لا زيادة فيه ولا نقصان؛ وإنما غايته أنه محل فصل أو وصل، والوقف على كل كلمة جائز، ووصل القرآن كله جائز، فاحتاج القياسي إلى طريق تعرفه؛ فأقول:

فاصلة الآية كقرينة السجعية في النثر، وقافية البيت في النظم؛ وما يذكر من عيوب القافية من اختلاف الحذو، والإشباع، والتوجيه، فليس بعيب في الفاصلة، وجاز الانتقال في الفاصلة والقرينة وقافية الأرجوزة؛ من نوع إلى آخر؛ بخلاف قافية القصيد.

ومن ثم ترى يرجعون مع عليم (آل عمران: 72، 74)، والميعاد مع الثواب (آل عمران: 194، 195) والطارق مع الثاقب (الطارق: 1، 3)"(16).

وتبقى الضوابط قضية اجتهادية عند العلماء، فالتوقيفي مثلاً تتباين أوجه النظر لدى العلماء في فهمه، والقياسي مسألة نسبية، يتم الاختلاف في وجهات النظر فيها كذلك.

ثانياً: مبنى الفواصل على الوقف:

يعتبر هذا الركن ركناً عملياً في تطبيق الفاصلة، بمعنى النطق بالفاصلة والوقف عليها، وذلك لتتبين الفاصلة من السياق، يقول الزركشي: "إن مبنى الفواصل على الوقف؛ ولهذا شاع مقابلة المرفوع بالمجرور وبالعكس، وكذا المفتوح والمنصوب غير المنون؛ ومنه قوله تعالى: {إنا خلقناهم من طينٍ لازبٍ} (الصافات: 11) مع تقدم قوله: {عذاب واصب} (الصافات: 9)، {وشهاب ثاقب} (الصافات: 10) وكذا: {بماءٍ منهمر} (القمر: 11)، {وقد قدر} (القمر: 12)، وكذا: {وما لهم من دونه من والٍ} (الرعد: 11) مع: {وينشئ السحاب الثقال} (الرعد: 12) (17).

ثالثاً: ارتباط الفواصل بالنظم:

وهذا الركن هو الأس في الفاصلة القرآنية، وينبع جمال الفاصلة في فهم هذا الركن، وبه تظهر حقيقة الإعجاز القرآني، وعليه تبنى قضية التناسب بين الآيات فضلاً عن السور.

جاء عند الزركشي: "ذكر الزمخشري في كشافه القديم، أنه لا تحسن المحافظة على الفواصل لمجردها إلا مع بقاء المعاني على سدادها، على النهج الذي يقتضيه حسن النظم والتئامه، كما لا يحسن تخير الألفاظ المونقة في السمع، السلسة على اللسان؛ إلا مع مجيئها منقادةً للمعاني الصحيحة المنتظمة، فأما أن تهمل المعاني، ويُهتم بتحسين اللفظ وحده، غير منظور فيه إلى مؤداه على بال، فليس من البلاغة في فتيل أو نقير، ومع ذلك يكون قوله: {وبالآخرة هم يوقنون} (البقرة:4) وقوله: {ومما رزقناهم ينفقون} (البقرة:3) لا يتأتى فيه ترك رعاية التناسب في العطف بين الجمل الفعلية إيثاراً للفاصلة؛ لأن ذلك أمر لفظي لا طائل تحته، وإنما عدل إلى هذا لقصد الاختصاص"(18).

ويقول الرماني: "وفواصل القرآن كلها بلاغة وحكمة؛ لأنها طريق إلى إفهام المعاني التي يحتاج إليها في أحسن صورة يدل بها عليها"(19).

رابعاً: تجانس وتقارب حروف الفواصل:

وهذه بلاغة مستقلة بنفسها، تنادي على جمالها بموسيقى لفظها، وتُخشع قلب سامعها ببلاغة معناها، وتقنع عقل منصتها ببيان حجتها، لا كما يستهوي بعضهم الوقوف على لفظها، وعدم تجاوزه ظاناً أن القرآن غلّب جانب اللفظ على جانب المعنى، وقد قسم الرماني حروف الفواصل إلى قسمين؛ فقال: "والفواصل على وجهين: أحدهما على الحروف المتجانسة، والآخر على الحروف المتقاربة؛ فالحروف المتجانسة كقوله تعالى: {طه. ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى. إلا تذكرة لمن يخشى} (طه: 1ـ3)، وكقوله: {والطور. وكتاب مسطور} الآيات، وأما الحروف المتقاربة فكالميم من النون، كقوله تعالى: {الرحمن الرحيم. مالك يوم الدين}، وكالدال مع الباء نحو: {ق. والقرآن المجيد} ثم قال: {هذا

شيء عجيب}، وإنما حسن في الفواصل الحروف المتقاربة؛ لأنه يكتنف الكلام من البيان ما يدل على المراد في تمييز الفواصل والمقاطع، لما فيه من البلاغة وحسن العبارة"(20).

ويزيد الرافعي الكلام توضيحاً وتجلية، حين يتحدث عن الفواصل، وما لها من أثر في النفس البشرية حيث يقول: "وما هذه الفواصل التي تنتهي بها آيات القرآن إلا صور تامة للأبعاد التي تنتهي بها جمل الموسيقا، وهي متفقة مع آياتها في قرار الصوت اتفاقاً عجيباً يلائم نوع الصوت والوجه الذي يساق عليه بما ليس وراءه في العجب مذهب، وتراها أكثر ما تنتهي بالنون والميم، وهما الحرفان الطبيعيان في الموسيقا نفسها؛ أو بالمد، وهو كذلك طبيعي في القرآن، فإن لم تنته بواحدة من هذه، كأن انتهت بسكون حرف من الحروف الأخرى، كان ذلك متابعة لصوت الجملة وتقطيع كلماتها، ومناسبة للون المنطق بما هو أشبه وأليق بموضعه، وعلى أن ذلك لا يكون أكثر ما أنت واجده إلا في الجمل القصار، ولا يكون إلا بحرف قوي يستتبع القلقلة أو الصفير أو نحوهما مما هو ضروب أخرى من النظم الموسيقي.

وهذه هي طريقة الاستهواء الصوتي في اللغة، وأثرها طبيعي في كل نفس، فهي تشبه في القرآن الكريم أن تكون صوت إعجازه الذي يخاطب به كل نفس تفهمه، وكل نفس لا تفهمه، ثم لا يجد من النفوس على أي حال إلا الإقرار والاستجابة"(21).

وقال الزركشي: "إن الفواصل تنقسم إلى ما تماثلت حروفه في المقاطع ـ وهذا يكون في السجع ـ وإلى ما تقاربت حروفه في المقاطع ولم تتماثل؛ وهذا لا يكون سجعاً، ولا يخلو كل واحد من هذين القسمين: - أعني المتماثل والمتقارب - من أن يأتي طوعاً سهلاً تابعاً للمعاني، أو متكلفاً يتبعه المعنى.

فالقسم الأول هو المحمود الدال على الثقافة وحسن البيان، والثاني هو المذموم، فأما القرآن فلم يرد فيه إلا القسم الأول لعلوه في الفصاحة"(22).

خامساً: فوائد الفاصلة:

لا بد أن يكون للفاصلة فوائد مستقلة بها، وهذه الفوائد نابعة من طبيعة الفاصلة القرآنية، وقد ذكر الرماني ثلاث فوائد لها وهي:

1- دلالة الفاصلة على المقاطع.

2- تحسين الفاصلة الكلام بالتشاكل.

3- إبداؤها الآي بالنظائر. (23).وأزيد عليها فائدتين لتكتمل الخماسية:

4- دلالتها على الإعجاز، وذلك لاحتفاظها بكنوز المعاني، مع موسيقا الألفاظ.

5- توليد أريحية في النفس، واطمئنان في القلب عند سماع الفاصلة على ما جاءت عليه، وبالتالي مجاذبة الأذن للإنصات والخشوع.

يقول د. حسن طبل: "إن من القصور أن نرد إلى ملحظ الإيقاع وحده خروج إحدى الفواصل المتماثلة عن الأصل، ذلك لأن مثل هذا الخروج في البيان القرآني المعجز إذ يحقق تناسب الفاصلة - إيقاعياً - مع نسق الفواصل، يحقق في الوقت ذاته تناسبها - تعبيرياً- مع ما تقتضيه طبيعة المعنى أو تتطلبه خصوصية السياق"(24).

والمقصود من هذا الكلام أنه لا يصح أن ننظر إلى الجانب الإيقاعي الموسيقي للفاصلة القرآنية في حال كوننا غافلين عن البعد المعنوي السياقي الذي يحتمه النص المعجز، وبالتالي لا انفكاك بين المعنى المراد، وبين إيقاع الفاصلة، فكلاهما مراد في تحقيق الإعجاز القرآني.

المبحث الثالث

بين الفاصلة والسجع:

لا بد من التعريف بكل من السجع والفاصلة، ثم بيان الفروق بينهما:

فالفاصلة: حروف متشاكلة توجب حسن إفهام المعاني.

والسجع: "هو الكلام المقفى، أو موالاة الكلام على رويّ"(25).

ويظهر الفرق بينهما من عدة أمور:

1- أن الفاصلة تامة المعنى، ويستحيل أن يكون فيها إخلال بالمعنى، والسجع على خلاف ذلك، فكثيراً ما يأتي السجع مخلاً بالمعنى.

2- أن الفاصلة تابعة للمعنى، بينما السجع فالمعنى تابع له.

3- أن الفاصلة نظم القرآن، والقرآن صفة الله، ولا بد أن تكون هذه الصفة كالموصوف، وذلك من حيث الكمال والجلال والتمام، والسجع نثر البشر، أي صفة المتكلم، وهذا المتكلم صفته النقص والعجز والاحتياج، فلا بد أن يكون الموصوف مورثاً صفاته الكلام المنطوق به، ومن الكلام السجع.

4- أن الفاصلة جاءت ناقضة للعادة التي تعارف عليها الناس، بينما السجع فهو من معين أقوال الناس.

5- الفاصلة القرآنية لم تأت على نظام مخصوص، وبعبارة أخرى لم تخضع لكيفية معينة في اللفظ والجرس،

والسجع إن خرج عن نظامه، بطل مطابقة اسمه مسماه.

هذه بعض الفروق بين الفاصلة القرآنية، والسجع النثري، وينبني على هذه الفروق، أن القرآن لا يصح أن يوصف لا بعضه ولا كله بأنه مسجوع، وكذلك لا بسجع محمود ولا بسجع مذموم، فليست القضية عندنا بنوعية السجع، اعتماداً على قوله عليه السلام: "أسجع كسجع الأعراب"(26)، فقد يكون السجع محموداً، ولكنه يبقى في دائرة كلام البشر، وهذه الدائرة هي محل النقص والعجز(27).

وعلى هذا الكلام يكون السجع سجعين، مذموماً ومحموداً، فالأول منهي عنه، والثاني مسموح به، وهذا في دائرة النثر البشري، أما النص الإلهي فهو مقدس مترفع عن أن يوصف بمثل هذه الأوصاف، وذلك أن السجع مصطلح يقصد به لون من ألوان الكلام البشري، فلا يصح أن يطلق على الكلام الأزلي، وهذا منشأ القضية عند علمائنا رحمهم الله تعالى؛ ولذا قال الإمام الباقلاني: "ذهب أصحابنا كلهم إلى نفي السجع من القرآن"(28).

وقال ابن سنان الخفاجي - وهو من المخالفين لنفي السجع-: "وأظن الذي دعاهم إلى تسمية كل ما في القرآن فواصل، ولم يسموا ما تماثلت حروفه سجعاً، رغبتهم في تنزيه القرآن عن الوصف اللاحق بغيره من الكلام المروي عن الكهنة وغيرهم"(29).

وهذا التنزيه واجب، وليس مجرد رغبة؛ لقوله تعالى: {ليس كمثله شيء وهو السميع البصير} (الشورى:11)، هذا ما نعتقده وندين الله به، وأي قول سوى هذا القول فإن موقفنا منه الصد والرد.

ويستدل القائلون بالسجع بأمور عدة منها:

1- تحديد معنى السجع، قال أهل اللغة: هو موالاة الكلام على وزن واحد، وقال ابن دريد: "سجعت الحمامة" معناه: رددت صوتها"(30).

ويرد الرماني فيقول: "وفواصل القرآن كلها بلاغة وحكمة؛ لأنها طريق إلى إفهام المعاني التي يحتاج إليها في أحسن صورة يدل بها عليها، وإنما أخذ السجع في الكلام من سجع الحمامة، وذلك أنه ليس فيه إلا الأصوات المتشاكلة، كما ليس في سجع الحمامة إلا الأصوات المتشاكلة، إذ كان المعنى لما تُكُلِّف من غير وجه الحاجة إليه والفائدة فيه لم يعتد به، فصار بمنزلة ما ليس فيه إلا الأصوات المتشاكلة"(31).

ويرد كذلك الباقلاني على هذه الحجة بقوله: "وهذا الذي يزعمونه غير صحيح، ولو كان القرآن سجعاً لكان غير خارج عن أساليب كلامهم، ولو كان داخلاً فيها لم يقع بذلك إعجاز. ولو جاز أن يقولوا: هو سجع معجز، لجاز لهم أن يقولوا: شعر معجز. وكيف والسجع مما كان يألفه الكهان من العرب، ونفيه من القرآن أجدر بأن يكون حجة من نفي الشعر؛ لأن الكهانة تنافي النبوات، وليس كذلك الشعر.

والذي يقدرونه أنه سجع فهو وهم؛ لأنه قد يكون الكلام على مثال السجع وإن لم يكن سجعاً؛ لأن ما يكون به الكلام سجعاً يختص ببعض الوجوه دون بعض؛ لأن السجع من الكلام يتبع المعنى فيه اللفظ الذي يؤدي السجع، وليس كذلك ما اتفق مما هو في تقدير السجع من القرآن؛ لأن اللفظ يقع فيه تابعاً للمعنى، وفصل بين أن ينتظم الكلام في نفسه بألفاظه التي تؤدي المعنى المقصود فيه، وبين أن يكون المعنى منتظماً دون اللفظ، ومتى ارتبط المعنى بالسجع، كانت إفادة السجع كإفادة غيره، ومتى انتظم المعنى بنفسه دون السجع، كان مستجلباً لتحسين الكلام دون تصحيح المعنى"(32).

2- وكذلك يستدل القائلون بالسجع باتفاق الكل على أن موسى أفضل من هارون عليهما السلام، ولمكان السجع قيل في موضع: {هارون وموسى} (الأعراف: 112) (33).

وقد أجاب الباقلاني نفسه عن هذه الحجة فقال: "وأما ما ذكروه من تقديم موسى على هارون - عليهما السلام - في موضع، وتأخيره عنه في موضع لمكان السجع وتساوي مقاطع الكلام فليس بصحيح؛ لأن الفائدة عندنا غير ما ذكروه، وهي أن إعادة ذكر القصة الواحدة بألفاظ مختلفة، تؤدي معنى واحداً من الأمر الصعب، الذي تظهر به الفصاحة، وتتبين به البلاغة، وأعيد كثير من القصص في مواضع كثيرة مختلفة، وعلى ترتيبات متفاوتة، ونبهوا بذلك على عجزهم عن الإتيان بمثله مبتدأً به ومكرراً.

ولو كان فيهم تمكن من المعارضة لقصدوا تلك القصة وعبروا عنها بألفاظ لهم تؤدي تلك المعاني ونحوها، وجعلوها بإزاء ما جاء به، وتوصلوا بذلك إلى تكذيبه، وإلى مساواته فيما حكى وجاء به، وكيف وقد قال لهم: {فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين} (الطور: 34)، فعلى هذا يكون المقصد بتقديم بعض الكلمات وتأخيرها، إظهار الإعجاز على الطريقين جميعاً، دون السجع الذي توهموه"(34).

فهذا الجواب من الباقلاني بالنسبة للفاصلتين يظهر منه التأصيل العلمي لحقيقة الإعجاز، لكنه يبقى كلاماً مجملاً لا يختص ببيان الفروق في الآيتين.

وقد أجاب البقاعي عن هاتين الآيتين فقال: "ولما كان سياق هذه السورة مقتضياً لتقديم هارون عليه السلام قال: {برب هارون وموسى} بشارة للنبي صلى الله عليه وآله وسلم بأنه سبحانه لا يشقيه بهذا القرآن بل يهدي الناس به ويذلهم

له، فيجعل العرب على شماختها أذل شيء لوزرائه وأنصاره وخلفائه، وإن كانوا أضعف الناس، وقبائلهم أقل القبائل، مع ما في ذلك من الدليل على صدق إيمانهم وخلوص ادعائهم بتقديم الوزير المترجم ترقياً في درج المعرفة ممن أوصل ذلك إليهم إلى من أمره بذلك ثم إلى من أرسله شكراً للمنعمين بالتدريج "لا يشكر الله من لم يشكر الناس"(35)، وهذا لما أوجب تقديمه هنا لا لهذا فقط، وذكروا اسم الرب إشارة إلى أنه سبحانه أحسن إليهما بإعلاء شأنهما على السحرة، وعلى من كانوا يقرون له بالربوبية، وهو فرعون الذي لم يغن عنهم شيئاً، فكانوا أول النهار سحرة، وآخره شهداء بررة، وهذه الآية في أمثالها من آي هذه السورة وغيرها مما قدم فيه ما يتبادر أن حقه التأخير وبالعكس لأنحاء من المعاني دقيقة، هي التي حملت بعض من لم يرسخ إلى أن يقول: إن القرآن يراعي الفواصل كما يتكلف بلغاء العرب السجع، وتبعه جمع من المتأخرين تقليداً، وقد عاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم ذلك حين قال: "سجع كسجع الجاهلية أو قال: الكهان"(36).

وقد علم مما ذكرته أن المعنى الذي بنيت عليه السورة ما كان ينتظم إلا بتقديم هارون، ويؤيد ذلك أنه قال هنا: {إنا رسولا} وفي "الشعراء": {رسول}، وقد قال الإمام الفخر الرازي كما حكاه عنه الشيخ أبو حيان في سورة "فاطر" من "النهر": "لا يقال في شيء من القرآن: إنه قدم أو أخر لأجل السجع؛ لأن معجزة القرآن ليست في مجرد اللفظ، بل فيه وفي المعنى"(37).

وهذا الجواب من الإمام البقاعي - رحمه الله- يبقى محتملاً، لكنه لا يجيب عن جزئية ألا وهي: لماذا قدم هنا هارون دون الآيات الأخرى؟ وإلا فجواب البقاعي يصح على جميع الآيات والمواقع، ولا يخص هذا الموضع دون سواه.

وقد حاولت تدبر هذه الآيات استجابة لقوله تعالى: {كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولو الألباب} (ص:29) فكان الآتي:

إذا دققنا النظر في آيات "الأعراف" نجد قوله تعالى: {قالوا آمنا برب العالمين. رب موسى وهارون} (الأعراف:121- 122)، وفي "طه" نجد قوله تعالى: {قالوا آمنا برب هارون وموسى} (طه:70).

وفي كلا الموضعين أُخر ذكر موسى، فمرةً قُدم عليه العالمين، ومرةً هارون، فهو على كلا الحالين متأخر من حيث الذكر، وهذا يدل على أمرين اثنين:

الأول: وهو أمر عام وهو أن السحرة حين آمنوا، لم يكن لهم تعلق بذات وشخص موسى عليه السلام، وإنما تعلقهم بدعوته، وهم بذلك يقررون حقيقةً مفادها؛ أن الارتباط هو ارتباط بالله سبحانه وتعالى، لا بأشخاص وذوات، وهذه الحقيقة هي في غاية الإخلاص ومنتهى الدقة المنهجية؛ وذلك أن فرعون عليه سحائب اللعنة وعلى من تبع منهاجه إلى يوم القيامة، أراد أن يحول الدعوة - أي دعوة موسى عليه السلام - إلى دعوة شخصية، ويجعل الخصومة بينه وبين موسى، لا بينه وبين الله، ومن ثم تضيع الحقيقة، ولذلك عندما جاء موسى عليه السلام: {وقال موسى يا فرعون إني رسول من رب العالمين} (الأعراف: 104) أراد فرعون أن يضيع حقيقة البينات التي أبانها موسى للناس، وتكفل الملأ بهذا حين قالوا: {قال الملأ من قوم فرعون إن هذا لساحر عليم. يريد أن يخرجكم من أرضكم فماذا تأمرون} (الأعراف: 109-110) فها هنا نرى منهجية الإضلال والتضليل تلعب دورها، والناس لا يعلمون إلا ظاهراً من القول، ولذا ينزلقون وراء التمويهات والتعريجات حتى تنقطع بهم السبل، ولكن هذا الأمر لا يخفى على أهل العلم ـ أعني السحرة ـ فهم من يدرك أبعاد القول، ومرامي الكلام، ومن أجل ذلك كان قولهم مدروساً غير قلق ولا نافر، فقدم بعضهم ذكر رب العالمين، ثم قالوا: رب موسى وهارون، ليبينوا لفرعون أن الاستجابة كانت لدعوة موسى لا لشخص موسى، فالإيمان برب العالمين قبل أن يكون إيماناً برب موسى، وقدم الآخر هارون على موسى لأجل هذا الغرض بالذات، فأرادوا قطع تمويهه، فقلبوا السحر على الساحر، وهم أهل الخبرة بالسحر، فأغاظوا فرعون حتى جعلوه يبتكر أشد أنواع العذاب والإيلام، لكن هيهات هيهات مع من آمن عن علم وبينة.

ولذا رأينا أن فرعون أصر واستكبر بطغيان وعنجهية فقال: {قال آمنتم له قبل أن آذن لكم إنه لكبيركم الذي علمكم السحر...} الآية (طه: 71) فكان الإصرار منه أن يحول القضية بينه وبين موسى لتكون أبعادها أبعاداً شخصية، لا أبعاداً عقائدية، وغرضه من ذلك التمويه كما يفعل فراعنة كل عصر فقال: {إنه لكبيركم الذي علمكم السحر}، ومن هنا يُعلم سر تعدية الفعل باللام دون الباء فلم يقل: "به"، وإنما: "له" وذلكم ليختص بشخص موسى دون دعوته، مع أنه متأخر في اللفظ!

لكن الفريق الآخر من السحرة ماذا قال؟! {قالوا آمنا برب العالمين} (الأعراف: 121)، فماذا رد فرعون؟ {قال فرعون آمنتم به قبل أن آذن لكم إن هذا لمكر مكرتموه في المدينة لتخرجوا منها أهلها فسوف تعلمون} (الأعراف:123).

وفي هذا الرد نجد أن تعدية الفعل كانت بالباء، وهذا يدل على أنه أنكر عليهم إيمانهم بالله لا بموسى فحسب، وهذه

الخطوة الأولى التي انزلق بها فرعون فأبدى أنيابه على حين غرة، ثم لننظر إلى إظهار اسم فرعون في آية الأعراف دون آية طه، وذلك لكي يقرر لنا القرآن أن المقابلة هاهنا أصبحت واضحة جلية، أصبحت بين الحق والباطل بأجلى صوره، إنها بين رب العالمين وفرعون، وعليه فقد وقع هذا الفريق في مأزق حرج، وتكشفت أنيابه من غير أن يشعر، وبناء على ذلك فإننا نفهم أن كلاً من الفريقين سلك طريقاً في جواب فرعون غير الطريق الذي سلكه الفريق الآخر ليوقعوه وليحرجوه، وهذا ما كان، يقول الخطيب الإسكافي: "فالتي في: آمنتم به لرب العالمين، لأنه تعالى حكى عنهم: {قالوا آمنا برب العالمين}، وهو الذي دعا إليه موسى عليه السلام، وأما الهاء في: {آمنتم له} فلموسى عليه السلام"(38).

نعم، قد أوقعوا فرعون من حيث لا يدري ولا يريد، وبالتالي نكون قد علمنا أن السحرة فريقان، وكل منهم سلك طريقاً في الجواب، ونلحظ كذلك أنهم اتفقوا في المبدأ، أي في مبدأ تأخير ذكر موسى عليه السلام؛ لكي لا تكون القضية شخصية بين موسى وفرعون، وذلك نابع من فهمهم لشخصية فرعون التمويهية، فكان التأخير من فريق بعد ذكر العالمين، والفريق الآخر بعد ذكر هارون، ولكل بيانه وفائدته في إيقاع أهل الشر في الشَرك.

الثاني: وهو أمر خاص، فتقديم هارون على موسى عليهما السلام، لأمر اختصت به سورة طه، وهو الإكرام لهارون عليه السلام، فقد أُكرم في مطلع السورة عندما طلب موسى عليه السلام أن يكون هارون وزيراً له لغرض الدعوة، وكان الإكرام الثاني بإجابة الله لطلب موسى عليه السلام، ثم كان الإكرام الثالث بخطاب الله لهما على صيغة التثنية: {اذهبا إلى فرعون إنه طغى} (طه:43) ثم الإكرام الرابع بأن أخبر عن كليهما: {قالا ربنا إننا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى} (طه:45) وهكذا الإكرامات تترى لهارون عليه السلام، فناسب أن يكون هذا المقطع في سورة طه، والمقطع الذي جاء فيه موسى قبل هارون في سورة الأعراف، والله أعلم.

هذا ما يبدو لي من تقديم هارون على موسى، وبالطبع لا يمنع هذا أن تأتي الفاصلة على أتم وجه وأجمله من الجرس، وبه يظهر إعجاز القرآن في جلاله وكماله.

وقد أطلت في رد هذه الحجة؛ لأن معظم من يثبت السجع في القرآن يستدل بها.

يقول الباقلاني: "فبان بما قلنا أن الحروف التي وقعت في الفواصل متناسبةً موقع النظائر التي تقع في الأسجاع، لا يخرجها عن حدها، ولا يدخلها في باب السجع، وقد بينا أنهم يذمون كل سجع خرج عن اعتدال الأجزاء، فكان بعض مصاريعه كلمتين، وبعضها أربع كلمات، ولا يرون في ذلك فصاحة، بل يرونه عجزاً.

فلو رأوا أن ما تُلي عليهم من القرآن سجع لقالوا: نحن نعارضه بسجع معتدل، فنزيد في الفصاحة على طريقة القرآن، ونتجاوز حده في البراعة والحسن.

ولا معنى لقول من قدر أنه ترك السجع تارة إلى غيره ثم رجع إليه، لأن ما تخلل بين الأمرين يؤذن بأن وضع الكلام غير ما قدروه من التسجيع؛ لأنه لو كان من باب السجع لكان أرفع نهاياته، وأبعد غاياته. ولا بد لمن جوز السجع فيه وسلك ما سلكوه من أن يسلم ما ذهب إليه النظام(39)، وعباد بن سليمان(40)، وهشام الفوطي(41)، ويذهب مذهبهم، في أنه ليس في نظم القرآن وتأليفه إعجاز، وأنه يمكن معارضته، وإنما صرفوا عنه ضرباً من الصرف.

ويتضمن كلامه تسليم الخبط في طريقة النظم، وأنه منتظم من فرق شتى، ومن أنواع مختلفة ينقسم إليها خطابهم ولا يخرج عنها، ويستهين ببديع نظمه، وعجيب تأليفه الذي وقع التحدي إليه، وكيف يعجزهم الخروج عن السجع والرجوع إليه، وقد علمنا عادتهم في خطبهم وكلامهم أنهم كانوا لا يلزمون أبداً طريقة السجع والوزن، بل كانوا يتصرفون في أنواع مختلفة، فإذا ادعوا على القرآن مثل ذلك لم يجدوا فاصلةً بين نظمي الكلامين"(42).

قال السيوطي: "ولا يجوز تسميتها قوافي إجماعاً؛ لأن الله تعالى لما سلب عنه اسم الشعر وجب سلب القافية عنه أيضاً لأنها منه، وخاصة به في الاصطلاح، وكما يمتنع استعمال القافية فيه يمتنع استعمال الفاصلة في الشعر؛ لأنها صفة لكتاب الله تعالى فلا تتعداه"(43).

فهذه الحجج التي يستدل بها مثبتو السجع، لا تصح لما تقدم، وعليه فلا يصح الاستدلال بها، وما دام بطل الاستدلال بطل المدلول وهو وجود السجع، ولم يبق سوى نفي وجوده في القرآن، وذلك لمنحيين اثنين، الأول: عقدي، والثاني: بياني، وقد سبق ذكرهما.

المبحث الرابع

أنواع الفواصل:

ألف الإمام ابن الصائغ الحنفي (ت 776هـ) كتاباً أسماه "إحكام الراي في أحكام الآي" ذكره السيوطي في "الإتقان" ونقل أهم ما فيه فيما يتعلق بالفاصلة القرآنية، ويعد هذا الكتاب من الكتب الفريدة التي استقلت بإفراد ذكر الفاصلة من

بين الكتب القديمة(44)، لكن هذا الكتاب لم يصل إلينا، وللخروبي منظومة في الفواصل، يقول محمد الحسناوي – رحمه الله -: "قال أحمد تيمور باشا في تعريفه: الشيخ محمد الخروبي، لم نقف على وفاته ولا زمنه، له منظومة في فواصل الجمع؛ أولها: الحمد لله منزل الكتاب. وهي من الرجز في القراءات جزء (1)، مجلد (1): خط مغربي - مع إتقان الصنعة - (217) ا.هـ، لكنه ذكر في وصف المخطوطة أن مؤلفها نظمها سنة 1026هـ، ولدى الرجوع إلى المخطوطة نفسها تبين أنها على شاكلة الأراجيز التعليمية، وصفت فواصل القرآن التي على صيغة الجمع" جمع مذكر سالم أو الأفعال الخمسة" إلى جواز بعضها رصفاً لا أكثر"(45).

وكذلك أشار الحسناوي إلى كتاب في الفواصل للمخللاتي وهو رضوان بن محمد بن سليمان أبو عبد الله 1311هـ واسم كتابه: "القول الوجيز في فواصل الكتاب العزيز" وهذا الكتاب مخطوط في كتب "الخزانة التيمورية" ج1 مج1 رقم 67 (46).

وكان حديث ابن الصائغ عن أنواع الفواصل في هذا الكتاب من أوسع ما وصلنا من حيث تعداد الأنواع، فقد ذكر أربعين نوعاً للفاصلة، وقال في كتابه: "اعلم أن المناسبة أمر مطلوب في اللغة العربية، يرتكب لها أمور من مخالفة الأصول، قال: وقد تتبعت الأحكام التي وقعت في آخر الآي مراعاة للمناسبة، فعثرت منها على نيف عن الأربعين حكماً"(47).

وقد انطلق ابن الصائغ في ذكر هذه الأحكام من الناحية اللفظية فحسب، فهو يرى أن هذه الصور التي جاءت عليها الفاصلة منشؤها اللفظ والجرس الموسيقي مراعاةً للألفاظ، وذلك لمشابهة السجع النثري والقافية الشعرية، فالأمر عند ابن الصائغ يتركز حول اللفظ، وتأتي النكتة البيانية عرضاً وذلك حال توجيهها، فهو يقول مثلاً: "لا يمتنع في توجيه الخروج عن الأصل في الآيات المذكورة أمور أخرى مع وجه المناسبة، فإن القرآن العظيم - كما جاء في الأثر -: "لا تنقضي عجائبه"(48)" (49).

فالأصل هو مراعاة الفواصل اللفظية، والناحية البيانية تكون تابعة لهذا الأصل، على أن الأمر على العكس تماماً.

يقول د. حسن طبل: "غير أنه مع إشارته لم يتوقف إزاء آية واحدة من الآيات التي استشهد بها، والتي بلغت بضعاً وستين آية، كي يبين في إيثار فاصلتها على النحو الذي وردت به وجهاً آخر سوى مراعاة المناسبة، الأمر الذي يدل بوضوح على أن هذه المراعاة في نظره هي عمدة الفواصل في تلك الآيات عن الأصل، هذا فضلاً عن أن في تصدير تصريحه السابق بعبارة: "لا يمتنع..." ما يشي بأن بعض هذه الفواصل في نظره - إن لم يكن أكثرها - لا وجه للخروج عن الأصل فيها، إلا تلك المراعاة، بل إن ذلك بعينه هو ما صرح به ابن الصائغ نفسه عند استشهاده لأحد تلك الأحكام، وذلك حيث يورد قوله عز وجل: {فلله الآخرة والأولى} (النجم: 25) مشاهداً على حكم تقديم ما هو متأخر في الزمان، ثم يعقب عليه قائلاً في حسم: "ولولا مراعاة الفواصل لقدمت الأولى"(50).

والحق أن ابن الصائغ قد أبعد النجعة في رأيه هذا، فهو يُجري الفواصل على ما أجراها عليه، مشابهةً لما صنعته العرب، وذلك حين قال: "اعلم أن المناسبة أمر مطلوب في اللغة العربية يرتكب لها أمور من مخالفة الأصول" فهو يرى أن الخروج عن الأصل في اللغة العربية لأمور يقتضيها الحال، ونحن نعلم أن هذه الأمور هي ضمن الضرورات الشعرية، ونعلم كذلك أنه يجوز للشاعر ما لا يجوز للناثر، ونعلم كذلك أن العربية حُفظت لنا عبر الأشعار، لكن لا بد لنا أن نعلم كذلك أن القرآن يختلف عن تلك الأشعار، ولا بد أن نعلم كذلك أن القرآن لا ضرورة فيه، فهو لم يخرج عن الأصل لضرورة إيقاعية لفظية ليطرب الأسماع، بل جاء لحكم بيانية.

وقد تحدث سيد قطب - رحمه الله - عن التناسق الفني؛ ومن ذلك قضية الإيقاع الموسيقي، لكنه لم يقف على قضية اللفظ فحسب، وإنما تجاوزها للنكت البلاغية فقال: "ومنها ذلك الإيقاع الموسيقي الناشئ من تخير الألفاظ ونظمها في نسق خاص، ومع أن هذه الظاهرة واضحة جد الوضوح في القرآن، وعميقة كل العمق في بنائه الفني، فإن حديثهم عنها لم يتجاوز ذلك الإيقاع الظاهري، ولم يرتق إلى إدراك التعدد في الأساليب الموسيقية، وتناسق ذلك كله مع الجو الذي تطلق فيه هذه الموسيقا، ووظيفتها التي تؤديها في كل سياق، ومنها تلك النكت البلاغية التي تنبه لها الكثيرون، من التعقيبات المتفقة مع السياق، كأن تجيء الفاصلة: وهو على كل شيء قدير بعد كلام يثبت القدرة، والفاصلة: إن الله عليم بذات الصدور بعد كلام في وادي العلم المستور"(51).

خاتمة البحث ونتائجه

الحمد لله الذي بعزته تتم الصالحات، ومن هذا البحث يتضح لنا دون أدنى شك أن الفاصلة القرآنية شيء منفصل عن السجع انفصالاً كلياً، وأن كليهما له مفهوم خاص به، ويتلخص لنا الفرق بينهما بأمور هي ما يأتي:

1- أن الفاصلة تامة المعنى، ويستحيل أن يكون فيها إخلال بالمعنى، والسجع على خلاف ذلك، فكثيراً ما يأتي السجع مخلاً بالمعنى.
2- أن الفاصلة تابعة للمعنى، بينما السجع فالمعنى تابع له.
3- أن الفاصلة جاءت ناقضة للعادة التي تعارف عليها الناس، بينما السجع فهو من معين أقوال الناس.
4- تختلف الفاصلة القرآنية عن السجع من حيث إن الفاصلة تحقق مقصداً هدائياً مرتبطاً بمراد الله تعالى الذي لا يأتيه الباطل، وهي بالتالي تتحلى بالكمال المطلق، بينما السجع فهو مرتبط بعمل الأديب الذي بالغ مراده تحلية الجمل والكلمات بقطع النظر عن مدى تحقيق المعاني وصوابها.
5- الفاصلة القرآنية مصطلح أريد منه التجرد من أي نقص وخلل بخلاف مصطلح السجع الذي قد يحيط به الخلل من كل جانب.

وبهذه الفروق يتبين لنا أن ما قيل: إن في القرآن سجعاً فهو كلام مردود ناشئ إما عن جهل القائل أو تجوزه وتسامحه بالمصطلحات، وكلا الأمرين مردود، فلا بد من تحري الدقة عند الحديث عن المصطلحات المتعلقة بالمعاني القرآنية، فهي دائرة القداسة التي لا تُقارب إلا بعلم دقيق، وفهم ثاقب، وحيطة حذرة، ولله الأمر من قبل ومن بعد.

الهوامش

(1) ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، ط2، ص847.

(2) الزمخشري، أساس البلاغة، ص342.

(3) ابن منظور، لسان العرب، 521/11.

(4) ابن منظور، لسان العرب، 524/11.

(5) النكت في إعجاز القرآن للرماني، ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، ص97.

(6) الباقلاني، إعجاز القرآن، ص270.

(7) الزركشي، البرهان في علوم القرآن، 53/1.

(8) الراغب، المفردات، 395.

(9) الزركشي، البرهان في علوم القرآن، 53/1.

(10) الفيروزآبادي، القاموس المحيط، 1327.

(11) أبو البقاء الكفوي، الكليات، ص509.

(12) سيبويه، الكتاب، 185/4.

(13) الزركشي، البرهان في علوم القرآن، 53/1.

(14) الضباع، الإضاءة في بيان أصول القراءة، ص38.

(15) نص الحديث: "عن أم سلمة أنها ذكرت أو كلمة غيرها قراءة رسول الله {بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم ملك يوم الدين} يقطع قراءته آية آية" يُنظر: سنن أبي داود - كتاب الحروف والقراءات- باب33 حديث رقم: (4001).

(16) الزركشي، البرهان في علوم القرآن، 98/1.

(17) الزركشي، البرهان في علوم القرآن، 69/1، الإتقان، 965/2.

(18) الزركشي، البرهان في علوم القرآن، 72/1، الإتقان، 965/2.

(19) ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، ص98.

(20) ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، ص98.

(21) الرافعي، تاريخ آداب العرب، 216/2.

(22) الزركشي، البرهان في علوم القرآن، 72/2.

(23) ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، ص99.

(24) طبل، حول الإعجاز البلاغي في القرآن، ص67.

(25) أبو البقاء الكفوي، الكليات، ص509.

(26) صحيح مسلم: كتاب القسامة باب دية الجنين رقم: 1682.

(27) يقول الإمام النووي شارحاً قوله عليه السلام: "إنما ذم سجعه لوجهين؛ أحدهما: أنه عارض به حكم الشرع ورام إبطاله، والثاني: أنه تكلفه في مخاطبته، وهذان الوجهان من السجع مذمومان، وأما السجع الذي كان النبي صلى الله عليه وسلم يقوله في بعض الأوقات، وهو مشهور في الحديث، فليس من هذا؛ لأنه لا يعارض به حكم الشرع ولا يتكلفه، فلا نهي فيه، بل هو حسن، ويؤيد ما ذكر من التأويل قوله صلى الله عليه وسلم: "كسجع الأعراب" فأشار إلى أن بعض السجع هو المذموم والله أعلم". النووي، المنهاج شرح صحيح مسلم، 175/11.

(28) الباقلاني، إعجاز القرآن، ص57.

(29) السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، 945/2.

(30) الباقلاني، إعجاز القرآن، ص57.

(31) ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، ص98.

(32) إعجاز القرآن للباقلاني ص58.

(33) إعجاز القرآن للباقلاني ص57.

(34) إعجاز القرآن للباقلاني ص62.

(35) مسند أحمد: 295/2.

(36) سبق تخريجه.

(37) البقاعي، نظم الدرر، 30/5.

(38) الإسكافي، درة التنزيل للخطيب، ص98.

(39) هو إبراهيم بن سيار بن هانئ البصري، أبو إسحاق النظام: من أئمة المعتزلة، قال الجاحظ: (الاوائل يقولون في كل ألف سنة رجل لا نظير له فان صح ذلك فأبو إسحاق من أولئك)، تبحر في علوم الفلسفة واطلع على أكثر ما كتبه رجالها من طبيعيين وإلهيين، وانفرد بآراء خاصة.
تابعته فيها فرقة من المعتزلة سميت (النظامية) نسبة إليه

توفي عام (231هـ) يُنظر: الأعلام للزركلي: 43/1.

(40) هو أبو سهل عباد بن سلمان البصري المعتزلي من أصحاب هشام الفوطي، يخالف المعتزلة في أشياء اخترعها لنفسه، يُنظر: الذهبي، سير أعلام النبلاء، 552/10.

(41) هو هشام بن عمرو أبو محمد الفوطي، المعتزلي، الكوفي، مولى بني شيبان، صاحب ذكاء وجدال وبدعة ووبال، يُنظر: الذهبي، سير أعلام النبلاء، 547/10.

(42) الباقلاني، إعجاز القرآن، ص 64 65.

(43) السيوطي، الإتقان، 942/2.

(44) وقد ذكر حاجي خليفة كتاباً في الفاصلة القرآنية لنجم الدين الطوفي واسمه "بغية الواصل إلى معرفة الفواصل"، يُنظر؛ كشف الظنون، 251/1

(45) الحسناوي، الفاصلة القرآنية، ص61.

(46) مرجع سابق، الفاصلة القرآنية، ص62.

(47) السيوطي، الإتقان، 946/2.

(48) جامع الترمذي - كتاب فضائل القرآن - باب ما جاء في فضل القرآن.

(49) الإتقان للسيوطي: 952/2.

(50) حول الإعجاز البلاغي في القرآن، مرجع سابق، ص44.

(51) سيد قطب، التصوير الفني في القرآن، ص69.

المصادر والمراجـع

الآلوسي، أبو الفضل شهاب الدين محمود الآلوسي، روح المعاني، 1994، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت.

أحمد، أبو عبد الله أحمد بن حنبل، المسند، بيت الأفكار الدولية، عمان.

الإسكافي، أبو عبد الله محمد بن عبد الله، درة التنزيل وغرة التأويل، 1995، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت.

الباقلاني، أبو بكر محمد بن الطيب، إعجاز القرآن، تحقيق: السيد أحمد صقر، 1972، دار المعارف، ط3، القاهرة.

البقاعي، برهان الدين البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، 1995، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت.

الترمذي، أبو عيسى الترمذي، الجامع، بيت الأفكار الدولية، عمان.

التهانوي، محمد بن علي، وضع حواشيه: أحمد حسن، 1998، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت.

الجرجاني، عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، تحقيق: محمد رشيد رضا، 1981، دار المعرفة، بيروت.

الجرجاني، علي بن محمد، التعريفات، تحقيق: إبراهيم الأبياري، 1985، دار الكتاب العربي، ط1، بيروت.

الخطابي، أبو سليمان حمد بن محمد، والرماني أبو الحسن علي بن عيسى، وعبد القاهر الجرجاني، ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، تحقيق: محمد سلام، ومحمد خلف الله، دار المعارف، ط3، القاهرة.

الذهبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد، سير أعلام النبلاء، 1993، مؤسسة الرسالة، ط1، بيروت.

الرازي، أبو عبد الله محمد بن عمر الرازي، التفسير الكبير، 1999، دار إحياء التراث العربي، ط3، بيروت.

الراغب، الراغب الأصفهاني، معجم مفردات ألفاظ القرآن، تحقيق: نديم مرعشلي، دار الفكر، بيروت.

الرافعي، مصطفى صادق، تاريخ آداب العرب، 1974، دار الكتاب العربي، ط2، القاهرة.

الزركشي، بدر الدين محمد بن عبد الله، البرهان في علوم القرآن، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، 1972، مطبعة عيسى البابي الحلبي، ط2، القاهرة.

الزركلي، خير الدين الزركلي، الأعلام، 1980، دار العلم للملايين، ط5، بيروت.

الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمر، أساس البلاغة، تحقيق: عبد الرحيم محمود، دار المعرفة، بيروت.

الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمر، الكشاف، 1987، دار الريان للتراث، ط3، بيروت.

السجستاني، أبو داود السجستاني، سنن أبي داود، بيت الأفكار الدولية، عمان.

سيبويه، أبو بشر عمرو بن عثمان، الكتاب، تحقيق: عبد السلام هارون، دار الجيل، بيروت.

السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، تحقيق: مصطفى ديب البغا، 2000، دار ابن كثير، ط4، بيروت.

الضباع، علي بن محمد، الإضاءة في بيان أصول القراءة، 1999، المكتبة الأزهرية للتراث، ط1، القاهرة.

الطبري، ابن جرير الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، دار الفكر، بيروت.

طبل، حسن طبل، 1999، حول الإعجاز البلاغي في القرآن، مكتبة الإيمان، ط1، القاهرة.

عباس، فضل حسن، 1992، البلاغة فنونها وأفنانها، دار الفرقان، ط3، عمان.

العكبري، أبو البقاء العكبري، التبيان في إعراب القرآن، 1969، مكتبة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة.

العمادي، أبو السعود العمادي، 1928، إرشاد العقل السليم، الجمعية الأزهرية، القاهرة.

ابن فارس، أحمد بن فارس، معجم مقاييس اللغة، تحقيق: شهاب الدين أبو عمرو، 1998، دار الفكر، ط2، بيروت.

الفيروزآبادي، أبو طاهر مجد الدين محمد بن يعقوب، القاموس المحيط، عناية وترتيب: حسان عبد المنان، بيت الأفكار

الدولية، ط1، عمان.

قطب، سيد قطب، التصوير الفني في القرآن، بلا توثيق دار أو تاريخ.

الكفوي، أبو البقاء أيوب بن موسى، الكليات، عناية: د.عدنان درويش، ومحمد المصري، 1998، مؤسسة الرسالة، ط2، بيروت.

مسلم، مسلم بن الحجاج، صحيح مسلم، 1995، دار ابن حزم، ط1، بيروت.

ابن منظور، لسان العرب، دار الفكر، بيروت.

النووي، أبو زكريا يحيى بن شرف، المنهاج شرح صحيح مسلم، المكتبة المصرية ومكتبتها، القاهرة.

Intervening in the Koran the Accusing of Assonance

Al-Mothana A.M. Mahmoud *

ABSTRACT

The research dealt with the topic of Intervening in the Koran, from one point of view that intervening in Koran and that it denies the accusing of assonance, the research discussed the meaning of it literally and terminology aspect, what indicates for the literally meaning of indications build the terminology meaning, the research directs the connection between the both meanings of it.

Then the research discussed some of these concepts which it has been discussed with intervening in the Koran, and it directed the denial of it to the truth of the intervening and what revolve it from concomitants, then the accusing of assonance and showing the difference between intervening and assonance along with discussing the research that claim other than that.

The research also dealt with the most important verse that the researchers who claim assonance in Koran derived, that verse in 'taha" Sura and that where in advancing Haroon over Moses, then to mention the types of intervening to the scholars.

The study was brief and focused on one thing that is the intervening is away from the accusing of assonance.

Keywords: Indervening, Assonance, Koran.

---

* Jazan University, Kingdom of Saudi Arabia. Received on 9/5/2007 and Accepted for Publication on 26/3/2009.